ابن رشد في نظر ابن تيمية

د. محمود يعقوبي

لقد اشتهر ابن رشد بالفلسفة أكثر مما اشهر بعلم الكلام، واشتهر بنقده لبعض فلاسفة الإسلام أكثر مما اشتهر بنقده لعلم الكلام. كما عرف عامة الناس من ابن تيمية فقهه وفتاواه أكثر مما عرفوا منه نقده لفلاسفة الإسلام ولبعض علماء الكلام.

وكل من قرأ ما كتبه ابن رشد في العقيدة ناقدا به علماء الكلام وبعضا من فلاسفة الإسلام، وماكتبه ابن تيمية في العقيدة ناقدا به الفلاسفة وبعضا من علماء الكلام، يكتشف مدى التصحيح الذي دعا إليه فيلسوف قرطبة دفاعا عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، كما يكتشف مدى التصحيح الذي دعا إليه شيخ الإسلام دفاعا عن موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وبالتالي يتبين له مدى اتفاق هذين المفكرين الإسلاميين، ومدى اختلافهما في أمر خطير، أراد كلاهما أن يكون رأيه فيه فصلا للمقال فيما بين الفلسفة والشريعة من الاتصال.

ولعل أهم ما يلفت النظر عند المقابلة بين آرائهما النقدية هو التقاء الرجلين في بعض النقد وافتراقهما في بعضه الآخر. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار البعد الزمني بين النقدين، وعلمنا أن وفاة ابن رشد (ت 595هـ) سبقت وفاة ابن تيمية (728هـ) بما لا يقل عن 133 سنة هجرية، عرفنا أهمية الموقف النقدي الرشدي من علم الكلام، ومدى استفادة شيخ الإسلام منه في مقارعة آراء المعتزلة والأشاعرة، وفي توهين آراء بعض الفلاسفة الإسلاميين الذين كانوا يعالجون المسائل الاعتقادية بالآراء الفلسفية اليونانية المشائية.

ولا بد ههنا من أن أشير إلى أن آراء ابن رشد النقدية الأصيلة لم يجهلها بعده الفكر الإسلامي ولا تجاهلها. ولم ينتظر أن ينبهه إلى أهميتها بعض المستشرقين الأوروبيين في العصر الحديث كما زعم ذلك (ارنست رينان) E. RENAN(1) وإن اطلاع ابن تيمية على آراء ابن رشد في مسائل العقيدة الإسلامية، وايراده لنصوص طويلة وعديدة من (فصل المقال) و(مناهج الأدلة) و(تهافت التهافت) للاستشهاد بها والتعليق عليها سلبا أحيانا وإيجابا أحيانا أخرى، لدليل قاطع على إدراكه لقيمتها في توجيه الأفكار، ولوزنها في ترجيح الآراء، ولخطرها في نصرة المذهب.

وقد أورد شيخ الإسلام تعليقاته على آراء ابن رشد في أهم كتبه الكلامية الذي تصدى فيه لكل ما لا يتفق مع عقيدة أهل السنة والجماعة من آراء علماء الكلام وفلاسفة الإسلام، هو كتاب (درء تعارض العقل والنقل) الذي يبدو من عنوانه أن صاحبه طلب فيه ما سبق لابن رشد أن طلبه في كتبه: وهو بيان اتفاق الطريقة العقلية والطريقة الشرعية في الهداية إلى الحق والحقيقة، وسنبين ذلك من خلال تعليق ابن تيمية على آراء ابن رشد في آراء

والديه فإن هذه هي الأحوال التي تثير الخوف والرحمة وتحقق الغرض من المأساة.

ولهذا الذي ذكره أرسطو مثيل عندنا، في رأي ابن رشد، وهو قصص إبراهيم -عليه السلام- فيما أمر به إبنه وهو في غاية الأقاويل الموجبة للحزن والخوف(19). غير أننا نرى أن هناك مقابلا إسلاميا آخر يطابق الأغراض التي ذكرها أرسطو مطابقة تامة، بل ويتعداها في الأثر، ونعني به قصص يوسف -عليه السلام-.

هذا، وإذا انتقلنا إلى الفصل الخاص بالتعرف أو الاكتشاف وهو التحول من حالة عدم المعرفة إلى حالة المعرفة وجدنا أرسطو يصنف لنا أنواعه العديدة، فمنها: (أولا) التعرف بالعلامات الخارجية وبعض هذه العلامات فطري مثل النجوم، وبعضها الآخر مكتسب وهذه إما موجودة في البدن مثل الندوب أو منفصلة عنه مثل العقود.

والذي يراه ابن رشد في شرحه لهذا النوع أن جل تشبيهات العرب راجعة إلى هذا النوع. فلقد كان العرب يحاكون أشياء محسوسة بأشياء محسوسة، وهي محاكاة من شأنها أن توقع الشك لمن ينظر إليها وتوهم أنها هي لاشتراكها في أحوال محسوسة. ولذلك كانت حروف التشبيه عند العرب تقتضي الشك. وكلما كانت هذه المتوهمات أقرب إلى وقوع الشك كانت أتم تشبيها(20).

وأما النوع الثاني فهو التعرفات التي يرتبها الشاعر وهي في باب التصديق والاقناع أدخل منها في باب التخييل ولذلك فهي استدلالات

ساذجة لا صنعة شعرية فيها، وهي تشبيه بالخطابة أو القصص(21). وهذا الجنس -في رأي ابن رشد- كثير في شعر المتنبي مثل قوله:

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل(22).

والنوع الثالث من التعرف هو الذي يتم بالتذكر أو الذاكرة، وذلك حينما نتعرف شيئا عندما نراه فنتذكره. وهذا أيضا موجود في رأي ابن رشد -في أشعار العرب كثيرا ومنه تذكر الأحبة بالديار والأطلال، وتذكر الأحبة بالخيال وإقامته مقام المتخيل(23). ومن هذا النوع قول قيس بن الملوح:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلى غيرها، فكأنما أطار بليلى طائرا كان في صدري.

ويقرب من هذا قول الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخرا واذكره لكل غروب شمس

هذا، وقد يقع التعرف عن طريق رابع هو القياس وهو أن يذكر أن شخصا ما شبيه بشخص من ذلك النوع بعينه كالقياس التالي: أتى رجل يشبهني، ولا يشبهني غير «أورسطس»؟ إذن «أورسطس» هو القادم.

وهذا التعرف يسميه ابن رشد «التصريح بالتشبيه» وهو خلاف التشبيه أو التعرف الأول، فإن التشبيه هو إيقاع شك، والتصريح بالتشبيه بين اثنين هو تحقيق لوجود الشبه، وهو الغاية في مطابقة التخييل(24). ومن هذا قول امرئ القيس:

وتعرف فيه من أبيه شمائلا

والنوع الخامس هو الذي يقوم على خطأ في استدلال الجمهور وهو من المبالغات الكاذبة والغلو الكاذب. ويشرح أرسطو ذلك القياس تفصيلا مقدما المثال التالي: «كان أوديسيوس وفقا للروايات الأسطورية هو الوحيد الذي يقدر على شد قوسه وإطلاق سهم منه بينما لا يقدر أحد آخر على هذا العمل، ولكن حيث أن البطل قد تنكر في زي رسول غريب عن إيثاكا وتقدم ليجرب شد القوس مع الآخرين وأفلح فعلا في ذلك فمن المحتمل أن يظن المشاهدون أن هناك من يقدر على هذا العمل غير أوديسيوس. ولكن هذا قياس خاطئ من جانب المشاهدين سرعان ما يفهمون خطأ استنتاجهم ويتبينون أن المتنكر في زي الرسول ما هو إلا البطل أوديسيوس نفسه. وبناء على هذا فإن الكاتب المسرحي في التعرف المركب القائم على القياس الخاطئ يعول على فهم الجمهور للخطأ بناء على السبب(25).

وحسب ابن رشد فإن هذا النوع موجود أيضا في أشعار العرب، ولا يوجد منه شيء في «الكتاب العزيز» إذ كان يتنزل من هذا الجنس من القول، منزلة الكلام السوفسطائي من البرهان. ولكن قد يوجد شيء محمود منه مثل قول المتنبي:

وأنىَّ اهتدى هذا الرسول بأرضه وما سكنت، مذ سرت فيها، القساطل!

ومن أي ماء كان يسقي جيـاده ولم تصـف من مزج الدمـاء المنـاهل!؟

وقوله

لبسن الوشى لا متجملات ولـكن كـي يصـن به الجمـالا

وضفرن الغدائر لا لحسـن ولـكن خفن في الشعر الضـلالا

هذا، وأفضل أنواع التعرف -عند أرسطو- هو الذي يستنتج من الوقائع نفسها، حينما تقع الدهشة عن طريق الحوادث المحتملة، وذلك لأن التعرفات التي من هذا النوع هي وحدها التي تستغني عن الحيل الصناعية والعلامات والعقود. ومعنى هذا أن الاستدلال الفاضل هو من أمور الفعل الإرادي.

ويذهب ابن رشد إلى أن هذا الاستدلال يوجد كثيرا في «الكتاب العزيز» وهو الذي يقوم على مدح الأفعال الفاضلة وذم الأفعال غير الفاضلة. وهو قليل في أشعار العرب(26) ومثال ذلك قوله تعالى: «ضرب اللّه ... كلمة طيبة ...» إلى قوله: «ما لها من قرار» (البقرة: 263).

وفي الفصل الخاص بالارشادات يقسم أرسطو الارشادات التي يجب أن يسترشد بها شعراء المآسي إلى قسمين: الأول يتعلق بموقف مؤلف المآسي، والثاني يتعلق بمنهج التأليف. فالشاعر يمكن، حين يؤلف، أن يقع في أمرين معيبين: التناقض في الفعل، والضعف في تمثيل العواطف. ولكن يستطيع تجنبهما لو أنه، من ناحية، وضع نفسه موضع النظارة وبهذه الطريقة يرى المواقف التي يرتبها بكل وضوح وكأنه يشهد الأحداث نفسها، ومن ناحية أخرى، تمثل في نفسه مشاعر أشخاصه، فأقدر الشعراء هم أولئك الذين يشاركون أشخاصهم مشاعرهم لما بينهم وبين الناس من مشابه(27).

وهذا يوجد كثيرا في أشعار العرب -حسب ابن رشد- لكن يوجد في أفعال غير عفيفة أو في ما قصد منه مطابقة التخييل فقط- ويستشهد ابن رشد في هذا بأشعار امرئ القيس وذي الرمة. والمتنبي أفضل من استرشد عنده بالقسمين إلا نفي الذكر. فقد كان يحكى عنه أنه كان لا يريد أن يصف

الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة. وهذا يعني أن إجادة الشعر تتأتى بأن يحصل للإنسان أولا جميع المعاني التي في الشيء الذي يقصد وصفه، ثم يركب على تلك المعاني الأجزاء الثلاثة من أجزاء الشعر، أي التخييل والوزن واللحن(28).

هذا، ويبدو أن فهم ابن رشد للمأساة على أنها المديح جعله يخطئ في إيجاد المقابل العربي لعنصر العقدة والحل عند أرسطو. فالعقدة كان أرسطو يعني بها ذلك القسم من المأساة الذي يبدأ ببدايتها ويستمر حتى الجزء الأخير الذي يصدر منه التحول إما إلى السعادة أو إلى الشقاوة(29). وبمعنى آخر فإن العقدة وحلها يعبران عن تطور مواقف الفعل الدرامي في المسرحية على يد المؤلف حتى تصل إلى ذروتها أو قمة تصاعدها، بحيث يتم إيجاد حل منطقي ومناسب لها(30). ويتم حل العقدة في التراجيديا بناء على ما تقتضيه الأحداث نفسها وما تسفر عنه، وعلى ذلك فإن أهم ما في المسرحية المأساوية هو العقدة وحلها.

أما ابن رشد فذهب إلى تصور العقدة بأنها مماثلة للإستطراد عند العرب، وهو ربط صدر القصيدة بالجزء المديحي، أما الحل فهو فصل الجزئين أحدهما من الآخر(31).

وفي فصل الارشادات دائما يحدد أرسطو للمأساة طولا معينا ويرى أن السعة في المسرحيات المأساوية ستؤدي إلى الخروج عن الحدود المرعية، ولهذا لم يشأ هوميروس أن يعالج في شعره حرب طروادة كلها، مع أن لها بداية ونهاية، وإلا لكانت الحكاية مسرفة في الطول عسيرة على الإدراك

بنظرة واحدة، بل حتى لو أمكن توخي القصد في المقدار لجاءت متشابكة معقدة نظرا لاختلاف الأحداث(32). وهذا على خلاف الملحمة التي تتسع، لطول مقدارها، لكي تنمو أجزاؤها النمو المطلوب.

ويبتعد ابن رشد في شرح هذا الارشاد عن المعنى الأرسطي حيث لا يرجع طول المسرحية وقصرها إلى طبيعة العمل الفني نفسه بل إلى طبيعة الشاعر. وفي رأيه أن من الناس من اعتاد، أو من فطرته معدة نحو تخييل الأشياء القليلة الخواص، فهؤلاء تجود أشعارهم في المقطعات، ولا تجود في القصائد. ومن الشعراء من هو على ضد هؤلاء، وهم المقصّدون كالمتنبي وحبيب (أبو تمام)، وهم الذين اعتادوا القول في الأشياء الكثيرة الخواص، أو هم بفطرهم معدون لمحاكاتها، أو اجتمع لهم الأمران جميعا(33).

أما ملخصات الفصول الخاصة بالمقولة (الفصول 19، 20، 21، 22) فقد واتى ابن رشد القول وصح لديه إجراء التطبيق وعقد المقارنات.

وهكذا نستطيع أن نخلص في خاتمة هذا البحث إلى أن ابن رشد قاس الشعر -ومعه الفن- بمقياس أخلاقي وذهب إلى أن شعر العرب في الجاهلية مفعم بتصوير رذائل الأفعال واللذائذ الحسية، بينما يحث الشعر اليوناني على الفعل الخلقي ويمجده. وابن رشد في هذا لم يكن متأثرا بأرسطو بل بأستاذه أفلاطون الذي طرد الشعراء من مدينته الفاضلة لأنهم يؤثرون تأثيرا سيئا فيمن عداهم من الناس(34).

كما يمكننا أن ننتهي إلى أن ابن رشد حينما أراد إجراء التطبيق وعقد المقارنات وتعديل الشواهد اليونانية بالشواهد العربية قد تعسف بل وزيف

العديد من آراء أرسطو. فنتج عن هذا -كما يقول بدوي- تلخيص لا هو يساير الأصل، ولا هو بمفيد في تيسير الانتفاع بمعاني أرسطو. ولهذا لا يخرج المرء من قراءته لهذا التلخيص الذي وضعه ابن رشد إلا بشعور أليم بخيبة الأمل في أن يكون العرب قد أفادوا منه كما أفادت أوربا في عصر النهضة، وكما أفادوا هم أنفسهم من سائر مؤلفات أرسطو في إخصاب الفكر العربي(35).

الهوامش:

(1) - د. ابراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الأنجلو مصرية، الطبعة الثانية، 1952، ص 4.

(2) - المرجع نفسه، ص 38.

(3) - أرسطو طاليس، فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمة عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، لبنان، الطبعة الثانية، 1973، تصدير بدوي، ص 12-13.

(4) - ابراهيم سلامة، المرجع السابق، ص 154-155.

(5) - أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، تصدير، ص 53-54.

(6) - المصدر نفسه، ص 55

(7) - ابن رشد، تلخيص الخطابة، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960، «مقدمة»، ص ز

(8) - أرسطو، فن الشعر، تصدير، ص 55.

(9) - ساغادييف، علم الجمال عند المسلمين، بحث ضمن كتاب «موجز تاريخ النظريات الجمالية» تعريب باسم السقا، دار الفارابي، بيروت، 1979، ص 56.

(10) - أرسطو، فن الشعر، تصدير، ص 55-56.

(11) - المصدر نفسه، ص 27.

(12) - ابن سينا، فن الشعر، من كتاب «الشفاء» ضمن «فن الشعر» لأرسطو، ص 161-162.

(13) - ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، ضمن «فن الشعر» لأرسطو، ص 201.

(14) - ابراهيم سلامة، المرجع السابق، ص 267.

(15) - المرجع نفسه، ص 271.

(16) - ابن رشد، تلخيص كتاب الشعر، ص 203.

(17) - المصدر نفسه، ص 204-205.

(18) - المصدر نفسه، ص 205.

(19) - المصدر نفسه، ص 220.

(20) - المصدر نفسه، ص 222

(21) -المصدر نفسه، ص 224.

(22) - المصدر نفسه، ص 225-226.

(23) - المصدر نفسه، ص 227.

(24) - أرسطو، فن الشعر، ص 47.

(25) - ابن رشد، تلخيص كتاب الشعر، ص 228.

(26) - المصدر نفسه، ص 229.

(27) - أرسطو، فن الشعر، ص 48.

(28) - ابن رشد، تلخيص، كتاب الشعر، ص 230 .

(29) - أرسطو، فن الشعر، ص 50.

(30) - محمد حمدي ابراهيم، دراسة في نظرية الدراما الاغريقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1977، ص 90.

(31) - ابن رشد، تلخيص كتاب الشعر، ص 231.

(32) - أرسطو، فن الشعر، ص 65.

(33) - ابن رشد، تلخيص كتاب الشعر، ص 232.

(34) - د. عمار طالبي، موقف ابن رشد من الشعر، محاضرة ألقاها في مؤتمر ابن رشد بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لوفاته والمنعقد بالجزائر من 04 إلى 09 نوفمبر 1978، نشر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1985، الجزء الأول، ص 165 وما بعدها.

(35) - أرسطو، فن الشعر، تصدير، ص 56 .